ان الحداثة ، والان فقط يمكن التلفظ بهذه الكلمات ، كانت تتسلل بكيفية لم يعرف نظيرها من قبل ، وبصمت ، الى الاشياء والكائنات لتحمل اليها انعكاسات ذلك الغرب البعيد المستثمر في عالم الحلم المرتاب وفي اجواء الجمال والقوة ٠

والوجه الآخر للغرابة التي لا تخلو من فتنة مثل الوجه الاول (الحداثة) والذي لم ينتبه اليه الا قليلا رغم ان عهده قريب ، وهو ذلك المظهر المتصل بالحياة اليومية المبتذلة والمتعلق باحداث التغيير فيها قسرا : لا تضحك بقوة ، لا تتحدث بصوت مرتفع ، خفف من حدة الالوان الصارخة ، اقطع الصلة المباشرة بالاكل ، لا تأكل بأصابعك (اي حصر المتعة في فم منغلق) ، لا تقل : آه ! بل : آي الفرنسية المهذبة ، وعندما تشعر بالالم لا تقل يما ، بل ماما ٠٠٠ محرمات كثيرة ليعلموننا الا نعيش ٠ وكانت هناك رقابة قاسية تنغرس كل يوم في الاعماق لتراقب داخل كل واحد الحركات والسكنات ، واقل اشارة يمكن ان يعرف من خلالها اليهودي المغربي ٠ انه عمل تأكلي لتدجين حساسية غنية ، كانت المدارس الاولى للرابطة الاسرائيلية هي بوتقته ٠ وشيئا فشيئا اخذ الشعور بالعار لكون الانسان يهوديا يتبلور ، ولم يكن يعبر عن نفسه الا عن طريق الاحساس بالعار لكونه مغربيا ٠ كانت القضية الكبرى بالنسبة للاستعمار ، هي محو ملامح وجه اصيل ، وتعويضها بقناع غفل لرجل غربي صغير ٠ كان يتوجب بسرعة التخلي عن الثياب التقليدية او الاحتفاظ بها لارتدائها في لحظات الصميمية داخل البيت ٠ ممنوع الكلام بالعربية خارج المنزل ، وتكفي ادنى لهجة او نبرة موشية ليعتبر اليهودي نفسه ضائعا ٠

لقد كانت العربية ، وهي لغة الحياة العائلية ولغة الرغبة والالم ، لغة الحب والغضب ، او ببساطة لغة الثرثرة ، كانت للاستعمال الخاص ٠ وكان من علامات الظرف ، اتخاذ اسماء مسيحية بدون الشعور بالضيق عند ارتداء هذه الثياب المستعارة الغريبة ٠

وهكذا انفتح طريق « المنفى الداخلي » حسب تعبير رولاند جاكار ، فالحساسية المتآكلة من جراء هذا المجهود الزجري الداخلي ، والشخصية المهددة في حيويتها المتدفقة ، والبنيات العقلية وطرائق التفكير ، كل ذلك كان ينبىء ايضا بتحولات عميقة ٠ وعلى المستوى الاكثر مباشرة ، فان العقول كانت تتعرض ، عن طريق التعليم ، لتأثير ايديولوجية خليط الا انها ذات طابع استعماري سائد ٠ وكانت جميع المظاهر المبتذلة للعمل الحضاري الفرنسي ، ولمحاسن الاستعمار ، تستقبل ، وكثيرا ما تقلد ، بسذاجة تظهر الى اي حد كانت اواليات (ميكانيزم) الاستلاب تدور عجلتها جيدا ٠

الاكثر خطورة ، هو ان هذا الوضع قد ولد عند عدد كبير من اليهود ، خاصة في الطبقات العليا ، احساسا بالتفوق العنصري تجاه المسلمين ٠ ولم يكن غريبا ان نجد اليهودي يتحدث باحتقار عن الآخرين ، الاهليين ، ناسيا انه هو نفسه « اهلي » (اندجين) ومستعمر مثل بقية المغاربة ٠ ولا شك ان الحماية الفرنسية قد زرعت بحذاقة بذور التقسيم ، فحققت تمدرسا مرتفعا بين الاطفال اليهود عن طريق مدارس الرابطة الاسرائيلية٠ الا ان هذه النتيجة الايجابية استعملت في اخفاء تمييز عنصري كان احد اسس سياسة الحماية ، والذي بدأ فوق مقاعد الدراسة ٠ كان الطفل اليهودي مفصولا عن الطفل المسلم، يدخل هو الى المدرسة ، ويلقى بالثاني الى الشارع ٠ ونفس التفاوت الصارخ ، اكثر المقنع ، كان يوجد في مجالات اخرى مثل مجال الصحة ٠ لكن علينا الا نغفل الشيء الاساسي ، وهو ان اليهودي المغربي لم يكن يتمتع بأي حق ولا بأية ضمانة او حرية اخرى